بسم الله الرحمن الرحيم

١٠٣ ـ سورة العصر

مكية ، وقيل مدنية ، وآيها ثلاث .

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (وَٱلْعَصْرِ)

[٢] (إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ)

[٣] (إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ)

« وَٱلْعَصْرِ » أى الدهر . أقسم تعالى به لانطوائه على تعاجيب الأمور القارّة والمارّة . ولذا قيل له (أبو العجب) . ولأنه يذكر بما فيه من النعم وأضدادها . فينبّه الإنسان على أنه مستعد للخسران والسعادة. وللتنويه به والتعظيم من شأنه ، تعريضاً ببراءته مما يضاف إليه من الخسران والذم . كما قيل :

يَعِيبونَ الزمانَ وليسَ فِيهِ معايبُ غير أهــلٍ للزمانِ

وجوّز أن يراد بالعصر ، الوقت المعروف الذى تجب فيه صلاة العصر .

قال الإمام : كان من عادة العرب أن يجتمعوا وقت العصر ويتحادثوا ويتذاكروا فى شؤونهم . وقد يكون فى حديثهم ما لا يليق أو ما يؤذى به بعضهم بعضاً . فيتوهم الناس أن الوقت مذموم . فأقسم الله به لينبهك إلى أن الزمان فى نفسه ليس مما يذم ويسبّ ، كما اعتاد الناس أن يقولوا (زمان مشؤوم) و (وقت نحس) و (دهر سوء) وما يشبه ذلك . بل هو عادّ للحسنات كما هو عادّ للسيئات . وهو ظرف لشؤون الله الجليلة من خلق ورزق وإعزاز وإذلال وخفض ورفع . فكيف يذم فى ذاته ، وإنما قد يذم مايقع فيه من الأفاعيل الممقوتة.

« إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ » أى خسران ، لخسارته رأس ماله الذى هو نور الفطرة والهداية الأصلية ، بإيثار الحياة الدنيا واللذات الفانية والاحتجاب بها وبالدهر ، وإضاعة الباقى فى الفانى « إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ » أى بالله وبما أنزل من الحق ، إيمانا ملك إرادتهم

فلا يعملون إلا ما يوافق اعتقاداتهم . كما قال « وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ » قال القاشانىّ : أى من الفضائل والخيرات. أى اكتسبوها فربحوا زيادة النور الكمالىّ على النور الاستعدادىّ الذى هو رأس مالهم .

«وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ » أى أوصى بعضهم بعضاً بما أنزل الله فى كتابه من أمره، واجتناب ما نهى عنه من معاصيه « وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ » أى على ما يبلو الله به عباده . أو على الحق، فإن الوصول إلى الحق سهل . وأما البقاء عليه والصبر معه بالاستقامة والجهاد لأجله ، فذاك الذى يظهر به مصداق الإيمان وحقيقته .

تنبيهات

الأول ـ قال الإمام ابن القيّم فى (مفتاح دار السعادة) قال الشافعىّ رضى الله عنه : لو فكر الناس كلهم فى هذه السورة ، لكفتهم . وبيان ذلك أن المراتب أربعة وباستكمالها يحصل للشخص غاية كماله. إحداها معرفة الحق. الثانية عمله به. الثالثة تعليمه من لا يحسنه. الرابعة صبره على تعلمه والعمل به وتعليمه . فذكر تعالى المراتب الأربعة فى هذه السورة . وأقسم سبحانه فى هذه السورة بالعصر أن كل أحد فى خسر ، إلا الذين آمنوا. وهم الذين عرفوا الحق وصدقوا به ، فهذه مرتبة . وعملوا الصالحات وهم الذين عملوا بما علموه من الحق فهذه أخرى . وتواصوا بالحق ، وصى به بعضهم بعضا تعليما وإرشادا ، فهذه مرتبة ثالثة. وتواصوا بالصبر ، صبروا على الحق ووصى بعضهم بعضا بالصبر عليه والثبات . فهذه مرتبة رابعة . وهذا نهاية الكمال. فإن الكمال أن يكون الشخص كاملا فى نفسه، مكملاً لغيره . وكماله بإصلاح قوتيه العلمية والعملية . فصلاح القوة العلمية بالإيمان . وصلاح القوة العملية بعمل الصالحات . وتكميله غيره ، بتعليمه إياه وصبره عليه وتوصيته بالصبر على العلم والعمل . فهذه السورة ، على اختصارها ، هى من أجمع سور القرآن للخير بحذافيره . والحمد لله الذى جعل كتابه كافياً عن كل ما سواه ، شافياً من كل داء ، هادياً إلى كل خير . انتهى .

الثانى : قال الرازىّ : هذه السورة فيها وعيد شديد . وذلك لأنه تعالى حكم بالخسار على جميع الناس ، إلا من كان آتياً بهذه الأشياء الأربعة . وهى : الإيمان . والعمل الصالح . والتواصى بالحق . والتواصى بالصبر . فدل ذلك على أن النجاة معلقة بمجموع هذه الأمور . وأنه كما يلزم المكلف تحصيل ما يخص نفسه ، فكذلك يلزمه فى غيره أمور . منها الدعاء إلى الدين . والنصيحة . والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وأن يحب له مايحب لنفسه . ثم كرر التواصى ليتضمن الأول الدعاء إلى الله ، والثانى الثبات عليه . والأول الأمر بالمعروف ، والثانى النهى عن المنكر . ومنه قوله تعالى[1] (وَأْنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ) وقال عمر : رحم الله من أهدى إلىّ عيوبى .

الثالث : قال الرازىّ : دلت الآية على أن الحق ثقيل ، وأن المحن تلازمه . فلذلك قرن التواصى بالصبر .

الرابع : تخصيص التواصى بالحق والصبر ، مع اندراجهما فى الأعمال الصالحة ، لإبراز كمال الاعتناء بهما .

قال الإمام : من تلك الأعمال الدعوة إلى الحق والوصية بالصبر . لكنه أراد تخصيص هذين الأمرين بالذكر ، لأنهما حفاظ كل خير ورأس كل أمر . والحق هو ما تقرر من حقيقة ثابتة أو شريعة صحيحة . وهو ما أرشد إليه دليل قاطع أو عيان ومشاهدة . فشرط النجاة من الخسران ، أن يعرف الناس الحق ويلزموه أنفسهم ، ويمكّنوه من قلوبهم ، ثم يحمل الناس بعضهم بعضاً عليه ، بأن يدعو كلٌّ صاحبَه إلى الاعتقاد بالحقائق الثابتة ، التى لا ينازع فيها العقل ولا يختلف فيها النقل . وأن يبعدوا بأنفسهم وبغيرهم عن الأوهام والخيالات ، التى لا قَرَارَ للنفوس عليها ، ولا دليل يهدى إليها . ولا يكون ذلك إلا بإعمال الفكر وإجادة النظر فى الأكوان ، حتى تستطيع النفس دفع ما يرد عليها من باطل الأوهام . وهذا إطلاق للعقل من كل قيد ، مع اشتراط التدقيق فى النظر . لا الذهاب مع الطيش والانخداع

(١) [٢١ / لقمان / ١٧] .

للعادة والوهم . ومن لم يأخذ نفسه بحمل الناس على الحق الصحيح بعد أن يعرفه فهو من الخاسرين . كما ترى فى الآية بالنص الصريح الذى لا يقبل التأويل . والصبر قوة للنفس على احتمال المشقة فى العمل الطيب ، واحتمال المكروه من الحرمان من اللذة ، إن كان فى نيلها مايخالف حقاً أو ما لاتأذن به الشريعة الصحيحة التى لا اختلاف فيها . واحتمال الآلام إذا عرضت المصائب بدون جزع ولا خروج فى دفعها عن حدود الحق والشرع . فشرط النجاة من الخسران أن تصبر ، وأن توصى غيرك بالصبر ، وتحمله على تكميل قواه بهذه الفضيلة الشريفة ، التى هى أم الفضائل بأسرها ، ولا يمكنك حمله على ذلك ، حتى تكون بنفسك متحلياً بهـا . وإلا دخلت فيمن يقول ، ولا يفعل كما يقول . فلم تكن ممن يعمل الصالحات . انتهى .

الخامس ـ قال الإمام: إنما قال (وَتَوَاصَوْاْ) ولم يقل (وأوصوا) ليبين أن النجاة من الخسران إنما تناط بحرص كل من أفراد الأمة على الحق ، ونزوع كل منهم إلى (أن يوصى به قومه ومن يهمه أمر الحق ، ليوصى صاحبه بطلبه ، يهمه أن يرى الحق فيقبله . فكأن فى هذه العبارة الجزلة ، قد نص على تواصيهم بالحق وقبولهم الوصية به إذا وجهت إليهم .

السادس ـ قال ابن كثير : ذكر الطبرانى من طريق حماد بن سلمة عن ثابت عن عبيدالله ابن حصن قال : كان الرجلان من أصحاب رسول الله ﷺ ، إذا التقيا لم يفترقا إلا على أن يقرأ أحدهما على الآخر سورة العصر إلى آخرها . ثم يسلم أحدهما على الآخر . قال الإمام : قد ظن الناس أن ذلك كان للتبرك . وهو خطأ . وإنما كان ليذكر كل واحد منهما صاحبه بما ورد فيها . خصوصاً من التواصى بالحق والتواصى بالصبر . حتى يجتلب منه قبل التفرق ، وصية خير لو كانت عنده .

وقد فسر الإمام رحمه الله هذه السورة بتفسير على حدة لم يسبق إلى نظيره، فعلى من أراد التوسع فى أسرارها ، أن يرجع إليه .